

Using Science and Medicine to
Stop Human Rights Violations

أطباء من أجل
حقوق الإنسان
آذار 2015

أطباء في مرمى النار:
أربع سنوات من الهجوم على الرعاية الطبية بسوريا



سوريّ يحمل طفلةً جريحة في مستوصفٍ مؤقت بعد ضرباتٍ جويةٍ قيل إنّ قوات النظام شنتها على منطقةٍ دوما التي يسيطر عليها الثوار، شمال شرق العاصمة دمشق.

الصورة الفوتوغرافية: عبد دومانى / AFP / Getty Images

نبذة عن منظمة أطباء من أجل حقوق الإنسان

لأكثر من 25 سنة، استُخدمت منظمة أطباء من أجل حقوق الإنسان (PHR) الطبّ والعلم لتوثيق الأعمال الوحشية واسعة النطاق والانتهاكات العنيفة لحقوق الإنسان وشدّ الانتباه إليها.

وهي منظمة عالمية قامت على فكرة أنّ مهنيي الصحة، بما لديهم من مهاراتٍ متخصصة وواجباتٍ أخلاقية وأصواتٍ مسموعة، هم في وضعٍ فريدٍ يتيح لهم الإسهام في وقف انتهاكات حقوق الإنسان.

تُستخدمُ تحقيقاتُ منظمة PHR وخبراتها للدفاع عن متعرضين للاضطهاد من العاملين في المجال الصحي، ولمنع التعذيب، وتوثيق الأعمال الوحشية واسعة النطاق ومساءلة منتهكي حقوق الإنسان.

هذا التقرير:

من إعداد إيليز بيكر، مساعدة برنامج التحقيقات، و ويندي براون، مدير البرامج. وقد قامت بمراجعته إيرين غالافر، مديرة التحقيقات، وأدريين ل. فريكي، مستشارة المنظمة حول سوريا، و ديدني دنفانت مديرة الاتصالات، ودونا مكي، المديرة التنفيذية. وقامت إيزا بي. يونغ، منسقة النشر، بتحرير التقرير وإعداده للنشر.

وقد استُمدتُ النتائجُ والتحليلات المحتواة في هذا التقرير من بحوثٍ أجرتها منظمة أطباء من أجل حقوق الإنسان، نُشرتُ أولاً في “Anatomy of a Crisis: A Map of Attacks on Health Care in Syria”
لمزيد من المعلومات، انظروا www.phr.org/syria-map.

مقدمة

كان ثمة شعوراً بالأمل عندما نزل السوريون إلى الشوارع سنة 2011 في خضم الاحتجاجات التي اكتسحت أوجها الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بعد أن قتل الشاب التونسي محمد بوعزيزي نفسه احتجاجاً على قمع الحكومة وعلى الفساد وقلة الفرص الاقتصادية. ولم يتخيل أحد أن يقف العالم بعد أربع سنوات من ذلك متفجعاً على السوريين وهم يكابدون حرباً أهلية مديدة عيّرت الحدود وأدت إلى أضخم نزوح بشري منذ الحرب العالمية الثانية. لقد كانت عواقب فشل المجتمع الدولي في حماية السوريين من الانتهاكات المنهجية المتكررة لحقوق الإنسان والقانون الإنساني مدمرة. لكن واحداً من هذه الانتهاكات يبرز بصفة خاصة: ألا وهو الدّوس على المبدأ القديم القائل بوجود ألا يستهدف أي جيش أو جماعة مسلحة العاملين في المجال الطبي ونظام الرعاية الصحية بهجوم.

منذ 2011 ونظام الحكم في سوريا ينتهك بصورة منهجية هذا المبدأ مستخدماً الهجمات على العاملين في المجال الطبي وعلى المرافق الطبية سلاحاً من أسلحة الحرب. بدأ الأمر عندما تدخل النظام في خدمات الرعاية الصحية وعرضها للخطر باعتقاله المتظاهرين الجرحى في غرف الطوارئ، ولكن سرعان ما تصاعد الأمر حتى وصل إلى قصف المشافي في المناطق التي تسيطر عليها المعارضة واعتقال وتعذيب وإعدام الأطباء الذين كانوا يلتزمون بأخلاق المهنة فيعالجون الجرحى بصرف النظر عن معتقداتهم السياسية. ولقد أهلكت قوات النظام جُلّة الأطباء الذين خاطرنا بحياتهم ويقوا بسوريا وعالجوا الجرحى، إذ اعتبرت تقديم العلاج الطبي لـ"الطرف الآخر" جريمة عقابها الموت.

ومع اقتراب الصراع من سنته الخامسة، قُتل ما لا يقل عن 610 أشخاص من الكادر الطبي، وشُنَّ 233 هجوماً متعمداً أو أعمى على 183 مرفقاً طبياً. وقد وثقت منظمة أطباء من أجل حقوق الإنسان هذه المقتلات والهجمات من خلال [خارطة تفاعلية على الإنترنت](#)، يجري تحديثها شهرياً. فالحكومة السورية مسؤولة عن 88 في المائة من الهجمات المسجلة على المشافي وعن 97 في المائة من حوادث قتل العاملين في المجال الطبي، تعود 193 حادثة منها مباشرة إلى التعذيب أو الإعدام. وهذه أرقام متحفظة بالنظر إلى صعوبة الإفادة عن هكذا حوادث في ظروف الحرب. لكن ثمة شيء مؤكد، هو أن هذه الهجمات متعمدة وذات أثر تصاعدي على صحة السوريين. فبعد أربع سنوات ومئات الهجمات، بات قصف مشفى واحد فقط يؤدي إلى عواقب كارثية. بالفعل، فمع تناقص المرافق الطبية ومقدمي الرعاية، يمكن أن يؤدي هجوم واحد إلى تدمير المشفى الوحيد الذي يخدم حياً بأكمله وقتل الطبيب الوحيد الذي يعمل في هذا المشفى. ومع كل طبيب آخر يُقتل أو مشفى آخر يدمر، يصبح مئات - بل آلاف - السوريين بلا مكان يذهبون إليه لتلقي الرعاية الطبية.

وقد أظهر الأطباء السوريون شجاعة وصبراً في وجه أسوأ كارثة إنسانية في هذا الجيل. ففي السنوات الأربع الماضية، لم يقدموا وحسب الرعاية الطبية في ظروف خطيرة مميّنة، بل شهدوا كذلك موت زملاء وأصدقاء وأقارب لهم وألوف من المدنيين قضاوا في الهجمات غير المشروعة ومن قلة الرعاية الطبية الواجبة ببلد أنتت الحرب على نظام الرعاية الصحية فيه أو كادت تأتي عليه. وبالرغم من اشتداد الهجمات على الصحة بسوريا سنة بعد أخرى في هذا الصراع، ما يزال الأطباء يخاطرون بكل شيء لإنقاذ حياة الناس.



ما بقي من المشفى الميداني للمعارضة بالقصير في محافظة حمص وسط سوريا.
الصورة الفوتوغرافية: AFP / Getty Images

السنة الأولى الأطباء يُستهدفون ويُقتلون عمداً

في 22 آذار 2011، دخلت قوات النظام مشفى درعا الوطني، وأخلته من الكادر غير الضروري، ووضعت قناصةً على سطحه. ظل القناصة هناك سنتين، يطلقون النار على المرضى والجرحى لضمان ألا يدخل المشفى أحد سوى مؤيدي النظام. وفي 8 نيسان، أطلقت قوات النظام بدرعا البلد النار على ممرضين كان يحاول إنقاذ جريح فأردوه قتيلاً. لم تكن تلك سوى بداية هجمات قوات النظام المتعمدة على الكادر الطبي والمرافق الطبية كسلاح حرب.

في السنة الأولى من الصراع، شنت قوات النظام ثمانين هجماً على مرافق طبية قتلت فيها 75 عاملاً في المجال الطبي. وقعت جُلُّ الهجمات والمبينات وسط وجنوب سوريا – في محافظات درعا وحمص وحماة – وكانت أدوات القتل أسلحة يدوية وقذائف هاون. ومات أغلب ضحايا الكادر الطبي بإطلاق النار، فيما لقي الباقون حتفهم إعداماً أو قصفاً من البر أو الجو أو تعذيباً.

نظام مدمر: الكفاح لتوفير الرعاية الصحية بسوريا

بالنظر إلى مستويات العنف المتطرفة الممارسة ضد أهل هذه المهنة واستهداف قوات النظام المباشر لهم، فر آلاف العاملين في المجال الطبي من البلاد نجاة بأرواحهم، تاركين مديناً كاملة بلا أطباء طوارئ وأطباء قلب وغير ذلك من اختصاصات. واستخدم من بقي منهم أسماءً مستعارة لحماية أنفسهم ولبناء مشافي ميدانية تديرها مجالس محلية ومنظمات إغاثة. يعمل في هذه المرافق المؤقتة أطباء ومرضى وطالب طب وبيطرة ومتطوعون دون تدريب نظامي. وأغلقت عشرات المشافي لنقص الكادر والتمويل واللوازم، وبقي المدنيون الذين أصابهم قصف قوات حكومتهم من الجو بلا علاج. كما تواجه هذه المشافي باستمرار نقصاً في الضمادات وأكياس الدم والمحاقن ومواد التخدير وأكياس الموتى لأن الحكومة تعيق بصورة منهجية إيصال المساعدة الطبية إلى المناطق التي تسيطر عليها المعارضة. كذلك راحت قوات النظام بشكلٍ منهجي تضايق وتعقل من ينقل أدوية ومواد ولو كانت بسيطة كالضمادات، لحرمان سكان المناطق التي تسيطر عليها المعارضة من اللوازم الطبية. وفي إحدى الحالات المسجلة سنة 2012، اعتقل ممرض من ريف دمشق لتقديمه دواءً للمعارضة. وعُذب في المعتقل، حتى أبلغت أسرته بموته في آب 2014.



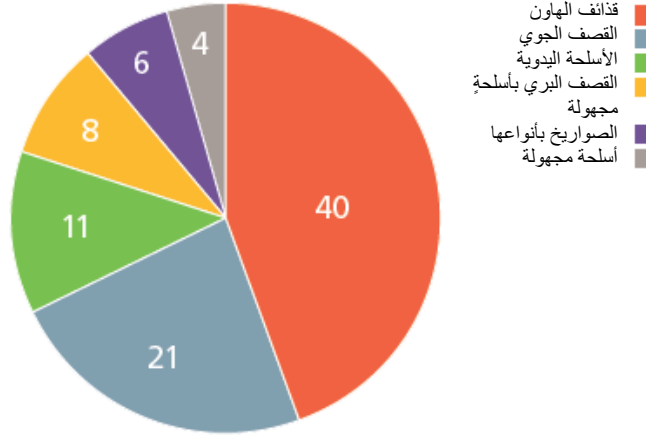
سوريون يشاهدون البلدوزات ترفع الأنقاض خارج مشفى دار الشفاء بحلب، شمال سوريا، بعد أن قصفت قوات النظام المرفق.
الصورة الفوتوغرافية: فرانثيسكو ليونغ / AFP / Getty Images

السنة الثانية الهجمات على الرعاية الصحية تتضاعف ثلاث مرات

بين آب وتشرين ثاني 2012، هاجمت قوات النظام مراراً مشفى دار الشفاء الكائن في حي الشعار ذي الكثافة السكانية العالية بحلب. وبعد ثلاث هجمات على الأقل، علق المشفى في النهاية خدمته بعد إصابته بصاروخ في 21 تشرين ثاني ومقتل طالب طب في الثالثة والعشرين كان يعمل فيه مسعفاً. لم ينل الاستهداف المتكرر من عزيمة الطاقم العامل، لكنه أتى على القسم الأعظم من المشفى. ولكن حتى بعد ذلك، لم يتوقف الطاقم عن معالجة المرضى. فنزل إلى الشارع لإقامة مشفى دار الشفاء الميداني الذي كان يعالج أي شخص بحاجة إلى علاج، حتى هوجم هو الآخر في النهاية. تُظهر هذه الحملة ميلاً واضحاً يلاحظ خلال سنوات الحرب: هو الهجوم المتكرر من الجو على المرفق الطبي نفسه، لإخافة العاملين في المجال الطبي والمرضى وتشل حركة الرعاية الصحية في المناطق التي تسيطر عليها المعارضة.

وقد تضاعفت الهجمات على الرعاية الصحية أكثر من ثلاث مرات في السنة الثانية للحرب، وكان النظام مسؤولاً عن 97 في المائة من الهجمات التي سُنت على المرافق الصحية وعن 99 في المائة من 199 حادثة وفاة للعاملين في هذه المرافق. وقد تلقت حلب ودمشق ودير الزور وريف دمشق النصيب الأكبر من الهجمات. وبالرغم من أن الأسلحة المستخدمة في الهجوم على المشافي لم تختلف عن تلك التي استخدمت في السنة السابقة، فقد انخفض عدد الوفيات الناتجة عن إطلاق النار وارتفع عدد تلك الناتجة عن الإعدام والقصف الجوي والبري. وكان صيف 2012 مدمراً جداً. فقد وثقت منظمة أطباء من أجل حقوق الإنسان 28 هجوماً على مرافق طبية بين تموز وأب - وهو رقم قياسي في الصراع. وكذلك شهر تموز، الذي قُتل فيه 26 شخصاً يعمل في المجال الطبي، كان ثاني أسوأ شهر من حيث عدد الوفيات في صفوف هؤلاء العاملين، بعد أيار 2014.

السنة الثانية: النسب المئوية لأنواع الأسلحة المستخدمة في الهجمات على المرافق الطبية



السنة الثالثة

تصاعد استخدام الأسلحة الثقيلة والقوات المسلحة غير الحكومية

في 20 حزيران 2013، قصفت قوات النظام مشفى الرقة الوطني، الكائن في مجمع كبير يسهل تمييزه بمركز المدينة. وقد أصاب الهجوم ثلاثة أشخاص من الكادر الطبي ودُمر وحدة العناية المركزة في المشفى. وفي 11 آذار 2014، قصفت قوات النظام المشفى مرة أخرى، فدمرت عيادة غسيل الكلى الوحيدة في المحافظة، وحرمت 200 مريض من هذا العلاج الحيوي للبقاء.

وفي السنة الثالثة للحرب، ازدادت هجمات النظام عنفاً. فكان أكثر من نصف الهجمات التي وثقتها منظمة أطباء من أجل حقوق الإنسان على 53 مرفقاً طبياً هجمات بصواريخ وقصفاً جويًا. وفي كانون ثاني 2014، بدأت قوات النظام حملتها الهجومية بالبراميل المتفجرة. البرميل المتفجر سلاحٌ بدائي قليل الكلفة يُصنع من أسطوانة تُحشى بالمتفجرات والشظايا والنفط، وهو يُشعل ويُلقَى من طائرة مروحية أو طائرة بجناحين. يزن البرميل الواحد من هذه البراميل بين 90 و 900 كغ وهو سلاحٌ مدمرٌ للغاية وغير دقيق، لأنه ينشطر إلى آلاف الشظايا عند الاصطدام. شن النظام هجمتين بالبراميل المتفجرة على المرافق الطبية في ذلك الشهر، كان كلاهما في المناطق التي تسيطر عليها المعارضة وتُجج بالسكان المدنيين. وشنّت قوات النظام ست هجماتٍ إضافية على مرافقٍ طبية في مناطقٍ مكتظة بالسكان وتسع هجمات على مرافقٍ طبيةٍ منزلة (معطيةً دليلاً آخر على الطبيعة المتعمدة للهجمات).

في هذه الفترة، برزت الجماعات المسلحة غير الحكومية كأطرافٍ مهاجمة للمرافق الطبية، مسؤولة عن تسع هجمات على هذه المرافق. وكان التنظيم الذي أعلن نفسه دولةً إسلامية (IS) مسؤولاً مع مختلف جماعات المعارضة الأخرى عن هذه الهجمات – التي شُنّت ثلاث منها على مشفى تشرين العسكري ومشفى حرسنا العسكري. وبالرغم من وجود ادعاءات باستخدام قوات النظام هذين المشفىين العسكريين كمركزٍ لاعتقالٍ وتعذيب، كانا يقدمان كذلك خدماتٍ طبيةٍ جارية، ما يجعلهما محميين بالقانون الدولي الإنساني. وفي تشرين ثاني 2013، وثقت منظمة أطباء من أجل حقوق الإنسان أول هجمتين على مشافٍ بسياراتٍ ملغمة، قامت بهما جماعاتٌ مسلحة غير حكومية.

وفي السنة الثالثة، قُتل 171 عاملاً في المجال الطبي، قتلهم إلا اثنين قوات النظام، التي قتلت أعداداً متزايدة من العاملين في المجال الطبي بالقصف الجوي أو التعذيب. في واحدة من هذه الحالات، اعتقلت قوات الأمن الدكتور أسامة بارودي، طبيب الهضمية البارز ومؤسس اتحاد الأطباء السوريين الأحرار، في عيادته بدمشق في شباط 2012. وعذبته حتى مات في المعتقل أواخر تموز 2013.



طبيبٌ ينظر في سجل وفيات ملطخ بالدماء، في مشفى بالقطاع الشرقي من مدينة حلب.
الصورة الفوتوغرافية: ميغيل ميدينا / AFP / Getty Images

السنة الرابعة الهجمات الضارية بالبراميل المتفجرة

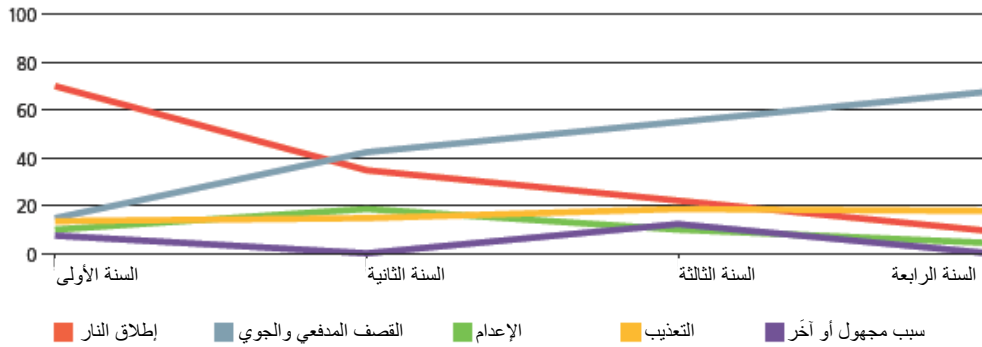
في 18 نيسان 2014، أسقطت قوات النظام برميلاً متفجراً مملوئاً بغاز الكلور قرب مشفى وسام بكفر زيتا. أُخْلِى المرضى والطاقم الطبي من المشفى هرباً من الأبخرة السامة، وتوقفت الخدمات الطبية مؤقتاً. وفي 23 حزيران، قُصفت قوات النظام المشفى مرةً أخرى ببراميل متفجرة أسقطت من هيلوكوبتر، فدمرت المشفى هذه المرة. وقُتل في هذا الهجوم طفل حديث الولادة عمره ثلاثة أشهر، وقُتلت معه ممرضة وجرح عدد من أفراد الطاقم الطبي.

وبحسب البيانات التي جمعتها منظمة أطباء من أجل حقوق الإنسان بين 15 آذار 2014 و 28 شباط 2015، قُتل 162 من العاملين في المجال الطبي وشُنَّ 82 هجوماً على مرافق طبية. في 70 هجوماً شنتها قوات النظام على هذه المرافق، استُخدمت في الهجوم صواريخ وقذائف صاروخية في 50 في المائة من الوقت وبراميل متفجرة في 40 في المائة. واستُخدمت قوات النظام البراميل المتفجرة 12 مرة على الأقل في مهاجمة المرافق الطبية شرقي مدينة حلب فيما بين نيسان وحزيران 2014. وخلال الصراع، استُخدمت قوات النظام البراميل المتفجرة في 32 هجوماً على الأقل على 24 مرافقاً طبياً. ولم تستخدم البراميل المتفجرة قرب خطوط الجبهة أو في الأماكن السكنية الواقعة تحت سيطرتها (خوفاً من إهلاك مؤيديها)؛ بدلاً من ذلك، استُخدمت القذائف الصاروخية والصواريخ، التي تستطيع إصابة أماكن محددة.

وكانت قوات النظام مسؤولةً عن 93 في المائة من 162 حادثة قتل لعاملين في المجال الطبي السنة الماضية. وبالرغم من أن عدد الوفيات الناجمة عن إطلاق النار قد انخفض، ارتفعت كثيراً أعداد الوفيات الناجمة عن القصف المدفعي والجوي. وطوال الحرب، سجلت محافظ حلب أعلى نسبةً مئوية للوفيات الناجمة عن القصف المدفعي والجوي. وقد استُهدف أكثر من 64 في المائة من الذين قُتلوا في صفوف العاملين في المجال الطبي السنة الماضية لإنقاذهم حياة الناس أو أثناء قيامهم بعملهم – وكانت هذه أعلى نسبة تُسجل خلال الحرب. ولقي كثيرٌ من العاملين في المجال الطبي مصرعهم بهجمات مزدوجة، كانت فيها قوات النظام تضرب المكان أول مرة، وتنتظر وصول المسعفين إلى المكان ثم تضربه مرةً أخرى. ففي 2 تشرين أول 2014، ذهب طبيب ومسعف إلى مكان في حي الحيدرية بمدينة حلب ضربته قوات النظام ببرميل متفجر. وفيما كان الاثنان يعالجان جرحى الهجوم، ضربت قوات النظام المكان نفسه ببرميل متفجرٍ آخر، فقتلتهما معاً.

لقي كثيرٌ من العاملين في المجال الطبي مصرعهم بهجمات مزدوجة، كانت فيها قوات النظام تضرب المكان أول مرة، وتنتظر وصول المسعفين إلى المكان ثم تضربه مرةً أخرى.

أسباب مقتل العاملين في المجال الطبي كنسبة مئوية



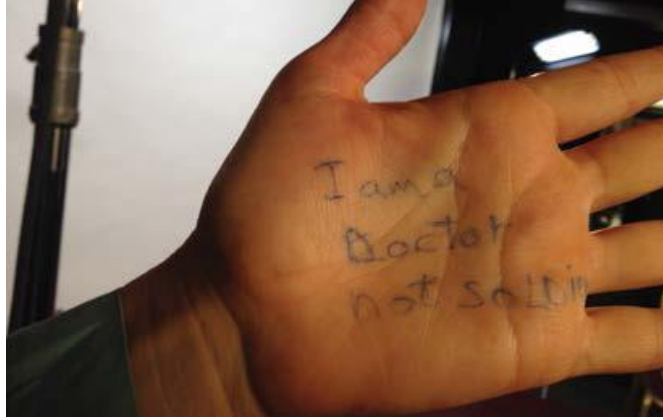
الخاتمة

استُهدف النظام السوري الرعاية الصحية واستخدم ذلك بشكل متزايد كسلاح حرب لتدمير معارضيه بحرمتهم من الرعاية الطبية، وقتل بعمله هذا آلافاً من المدنيين. وهوجمت الطواقم والمرافق الطبية لأنها وضعت حاجات المرضى أولاً وقدمت الرعاية لكل أطراف الصراع. وقد لاحظت الجماعات المسلحة غير الحكومية لامبالاة المجتمع الدولي بهذه الانتهاكات المتكررة للقانون الدولي فاتبعت تكتيكات النظام. ورأت منظمة أطباء من أجل حقوق الإنسان هذه التكتيكات نفسها تنتشر حول العالم: فأطراف الصراع بأوكرانيا و غزة وجمهورية أفريقيا الوسطى شنت عشرات، إن لم يكن مئات، الهجمات على الطواقم والمرافق الطبية سنة 2014.

وتحول رمزا الصليب الأحمر والهلال الأحمر من دريئة حماية إلى دريئة استهداف لظهور أولئك الذين يخاطرون بحياتهم وهم يعلمون لإنقاذ الآخرين. فلا بد للمجتمع الدولي من التصرف بحزم واستعادة المعيار الذي يقرر وضع الحماية للطواقم والمرافق الطبية. صحيح أنه فات الأوان لكثير من السوريين – من الطواقم الطبية التي استهدفت والمدنيين الذين باتوا بلا مكان يلجؤون إليه بحثاً عن علاج ينقذ حياتهم – لكن العمل المنسق يمكن أن يعكس هذا الاتجاه قبل أن يصبح هو المعيار الجديد السائد في الحروب.

ليس من الواضح كم من الوقت سيصمد نظام الرعاية الصحية قليل الطواقم المقهور المسحوق الممزق بسوريا. لكن سنة أخرى من البراميل المتفجرة وإعدام الأطباء ستسبب دماراً استثنائياً لملايين السوريين العالقين في مرمى النيران، الذين يموتون من جروح الحرب ومن الأمراض التي كان يمكن معالجتها.

تحول رمزا الصليب الأحمر والهلال الأحمر من دريئة حماية إلى دريئة استهداف لظهور أولئك الذين يخاطرون بحياتهم وهم يعلمون لإنقاذ الآخرين.



رسالة من طبيبٍ سوري يعمل في مشفى ميداني بمنطقة تسيطر عليها المعارضة: "أنا طبيب لا جندي."

يمكن الاطلاع على التقرير الكامل في:
phr.org/syria-doctors



المنظمة حائزة على جائزة نوبل بالمشاركة



phr.org

نيويورك، نيويورك
المقر الرئيسي
بوسطن، ماساتشوستس
واشنطن، دي سي

أطباء في مرمى النار: أربع سنوات من الحرب على الرعاية الصحية بسوريا